الفصل الخامس
نحو نظرية في التفاعل الحضاري
بين الإسلام والحضارات الأخرى

يدور الجدل – على امتداد العالم – حول قضية الحضارات والثقافات، وحول الأهداف المعلنة والخفية وراء تلك الإطروحات، وحول كيفية معالجتها إن حواراً أم صراعاً .

والتاريخ العالمي لم يخل من نزاعات وصراعات حضارية، ناتجة عن التلاقح والالتقاء الثقافي بين حضارة وأخرى، وبين مجتمع وآخر. ذلك أن دينامية التفاعل الثقافي، تخلف باستمرار عدة آثار في السلوك الحضاري والاجتماعي، سواء على شكل مقاومات داخلية ضد الوافد لحفظ " الصفاء " العرقي أو الثقافي أو غيرهما، أو على شكل تماهيات يدخل فيها طرف في آخر كلياً أو جزئياً في سياق متناغم يسمح بالتعاضد والتآلف .

وإذا كنا قد اعتدنا تأريخ المرحلة الحديثة في التاريخ من عصر النهضة في القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر، باعتبار أن هذا هو التاريخ الوحيد المحدد، بأنها بداية لحدوث النهضة على مستوى العالم إقتداءً بالعالم الغربي، لكن الثقافة التي جاءت، فعلياً، بالنهضة العالمية إلى ثقافة العالم، كانت الثقافة العربية الإسلامية اعتباراً من القرن السابع وحتى القرن الحادي عشر، لتدمج – وبمنهجية متميزة – بين العالم القديم والعالم الجديد، بين الثقافة الشرقية العربية الإسلامية وثقافة الغرب اليونانية، والعالم مدين بشدة بالفضل لهذه الثقافة العربية الإسلامية رغم نكرانها كثيراً عبر مؤامرة غربية مخططة .

والأمر المثير للجدل، أنه على خلاف جميع التكهنات التي ذهبت إلى أن انتهاء الحرب الباردة سوف يوفر مناخاً أفضل لإحلال السلام والأمن على المستوى الدولي، فإن التطورات الفعلية جاءت على النقيض تماماً، حيث تفاقمت الحروب التجارية والحروب القومية والحروب الأهلية على امتداد الساحة الدولية. وربما مما يثير الانتباه ارتباط هذه الصراعات – في جانب مهم منها – بالبعد الحضاري أو البعد الإثني .

ومـــع الاعتراف بحقيقة أن التفاعل الحضاري يؤدي إلى التأثير المتبادل بين الحـــضارات، إلا أن هـــذا التفاعل لا يتحقق له الفاعلية إلا من خلال توازن في العلاقـــات الحضارية. لكن الواقع يشير إلى حالة من الخلل الحضاري الناتج – بالطـــبع – عـــن خلل في توازن العلاقات الحضارية. فعلى حين تستعلي بعض الحـــضارات علـــى الأخرى، نجد هذه الأخرى قد أصابتها الدونية والوهن من جراء التبعية الحضارية .

إن الإشـــكالية الحقيقية في نموذج " الحوار الحضاري " هي أن العالم يعيش فـــي هذه الآونة، حقيقة لا مفر منها في هذا السياق، وهي أن الحضارة الغربية هـــي الحـــضارة الأقـــوى علـــى كافـــة الأصـــعدة العلمية والتقنية والعسكرية والاقتـــصادية. وبالتالـــي فهـــي القادرة على تفعيل العوامل الخاصة " بالتفاعل الحضاري " بدرجة تفوق بكثير الحضارات الأخرى، المقابلة أو المواجهة. ووفقاً لهذا الخلل، يسوق منظرو ومخططو فكرة " النظام العالمي الجديد " معطياتهم – التي يمكن أن تهدد الجهود المخلصة للحوار الحضاري – وهذه المعطيات تتجسد فـــي: الانتـــصار النهائي لليبرالية الرأسمالية وشيوع نموذجها عالمياً، وهيمنة القطب العالمي الواحد على الساحة العالمية، والسيطرة المروعة للتقنيات العلمية، والتـــي يمـــتلك ناصيتها – في الأغلب – الدول الغربية، وأخيراً نهاية القوميات وانهيار الخصوصية الثقافية وبزوغ صراعات بين الدول والمناطق على أساس ديني .

نحـــن في حاجة إلى نظام عالمي إنساني يؤكد على جوانب الاتفاق الإنساني أكثـــر مـــن تأكيده على جوانب الاختلاف، ويرسي الحقوق الأساسية للإنسان، ويحتـــرم الاختلافات والخصوصيات الدينية والقومية والثقافية عامة، وينوط فيه الـــسلام والعـــدل وإرادة التقدم والتعاون والتكامل لشعوب الأرض جميعاً بهدف تحقيق " إنسانية الإنسان " عن حق .

إن ذلـــك لن يتحقق ما لم يرسخ مفهوم الحوار في إطار الحرص على حرية الاخـــتلاف والاجتهاد والإبداع واحترام الرأي الآخر بصرف النظر عن اتجاهه الفكري أو العقائدي .

إن هـذا الحوار هو حوار منظم هادف إيجابي، مشروط بالتكافؤ النسبي بين الـدول والـشعوب، وبتوازن المصالح فيما بينها وتوفير المناخ المناسب له. إن عـدم توافر هذه الشروط أو الإخلال بها قد يمكن أطرافاً دولية معينة من إساءة استخدام أسلوب الحوار والالتفاف حوله بفرض الهيمنة .

لابـد للحـوار الحضاري أن يولي الاحترام الواجب لما بين الحضارات من اختلافات، في نفس الوقت الذي تبنى فيه على الجوهر الأخلاقي المشترك الذي يمـثل الجانب الأهم والأوفر في بنية الحضارة الإنسانية. وعلينا أن ندرك جيداً، أن فترة من الحرب الباردة، لازالت تلقي بظلالها القاتمة على مصير العالم .

ومـن ثم فإننا ننتقل بين قديم لم يتلاشى بعد، وجديد لم تتحدد معالمه النهائية بعـد، ولـذا فالطابـع الانتقالـي للمـرحلة الـراهنة يميل إلى الصراع أكثر مـن مـيله إلـى الحوار. ولكن كيف يمكن التعامل مع هذا الصراع الذي يمثل جوهـر الـنظام العالمي الآتي ؟ صراع مفروض من الغني على الفقير .. من المـبدع علـى الناقل. هل يمكن أن يتم " الحوار الحضاري " بين شركاء غير متكافئين ؟

قد يبقى هذا النموذج الذي نسعى إلي تكوينه وعرضه أملاً، وعلى الرغم من أن الأعمـال العظـيمة بـدأت بالآمال، فإن " الحوار الحضاري " يتطلب آمالاً مدعومة بصدق النوايا وأعمال جادة. ويتطلب ذلك تفاعلاً بين المثالية والواقعية. فالمثالية تحفز أطراف الحوار نحو إجماع جديد، بينما الواقعية تجعلهم يواجهون الحقائق بما في ذلك العقبات الحقيقية – لذا فقد يكون من المفيد محاولة التعرف علـى بعض المثيرات والعقبات التي تعوق عملية الحوار. والمثال واضح، فقد سـيطر على العلاقة بين العالمين الإسلامي والغربي مشهدين حافلين بالصراع: الحـروب الـصليبية والنموذج الاستعماري. وذلك الأخير لازالت سياطه تلهب ظهور المسلمين، وبقاياه تنتشر في بؤر كثيرة على مستوى العالم، والأصعب من ذلك تلك البؤرة التي زرعها في قلب العالم الإسلامي ألا وهي إسرائيل. لا سبيل إلـى نكران تاريخ هاتين الفترتين من الصدام والسيطرة، ولكن الواقعية تقتضي القـول: أن هذين المشهدين لم يكونا الأسلوبين الوحيدين في الاتصال والالتقاء بين الحضارتين الإسلامية والغربية. فلم يخل الأمر من تاريخ طويل وضاء من

العلاقـــات السلمية والتعاون الاقتصادي والتجاري والتكنولوجي وتلاقح الأفكار والخبـــرات الثقافـــية، وحتى على المستوى العقائدي، فإن أوروبا مدينة لمنطقة الـــشرق العربـــي الإسلامي التي شهدت استقبال رسالة السماء بدءاً من إبراهيم علـــيه السلام وحتى الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام، مروراً بموسى وعيـــسى علـــيهما الـــسلام. إن الحاجة ملحة إلى تقييم أكثر توازناً وموضوعية للـــتفاعل بين القوتين التاريخيتين العظميتين (العالمين الإسلامي والغربي) وليس هـــذا بغـــرض تجاهل حقائق معينة قد تكون مريرة أو بغيضة، بل هي دعوى للـــسير في طلب الحقيقة كاملة من أجل الحوار البناء وتجنباً للصراع، الذي لن ينتـــصر فـــيه أحـــداً في النهاية. ينبغي أن يكون الهدف تسوية الأمور من أجل المستقبل بدلاً من إدانة الماضي أو محاولة تبرئته وتبريره .

إشكالية المصطلح :

لـــيس هناك ثمة اتفاق على دلالة كلمات الحضارة والمدنية والثقافة، إذ كثيراً ما تستعمل كمترادفات في العلوم الاجتماعية، وربما يعتمد فهم هذه المصطلحات علـــى علاقـــة الإنسان الثنائية بالطبيعة والمجتمع. وربما يرجع هذا الخلط إلى كـــتاب إدوارد بيـــرنت تايلور " الثقافة البدائية " الذي نشر سنة ١٨٧١م حينما عـــرف الـــثقافة الحـــضارة كمتـــرادفين بقـــوله: الثقافة أو الحضارة بمعناها الإثنوجرافـــي الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخـــلاق والقانـــون والعـــرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع. وإذا كان تعريف الحضارة يتركز على علاقـــة الإنـــسان بالطبيعة والمجتمع، فإن الأمر الذي لا يمكن تجاهله في هذه العلاقـــة هـــو الـــزمان، ذلك أن مفهوم الزمان يمنح هذه العلاقة التراكمية التي يقتضيها تكوين الحضارة .

وعلى الرغم من الصعوبة التي يكتنفها التمييز بين الحضارة والثقافة كوجهين لنشاط واحد، فإن الطبيعة تتحدد بأرض معينة، والناس يتحددون بشعب معين، ثم إن حـــصيلة تفاعـــل الناس مع أرضهم وفيما بينهم هي التي تنتج الحضارة في مـــضمونها المـــادي (المنتج المادي) أو المعنوي (الثقافة) وتعود كلمة حضارة Civilization إلـــى الكلمـــة اللاتينية Civites بمعنى مدينة أو Civis بمعنى

ســاكن المديــنة أو Civilis بمعنى مدني، ورغم ما تعرض له هذا المفهوم من مــراجعات وتحــولات فــإن دلالــة " المدينة " لا زالت راسخة لدى كثير من الباحثــين، بــل وذهــب بعــضهم إلى الربط بين كلمة Civilization وحركة التــصنيع الأوروبــي في منتصف القرن السادس عشر، وعليه يتجسد مصطلح Civilization مــن خــلال مجمــوعة من الشروط المادية، حيث يظهر هذا المــصطلح – ولأول مــرة في منتصف القرن السادس عشر – مقترناً بحدوث مجموعة من التغيرات والتحولات الاقتصادية والاجتماعية. ومع التحديد المادي لكلمــة Civilization كمــا أســلفنا، يتداخل مع مصطلح آخر له أهمية وهو Culture، ذلــك الــذي عرف على نحو أقدم نسبياً واستخدم حيناً بمعنى الثقافة وحيــناً آخــر بمعنــى الحضارة. ومصطلح Culture يعود إلى اللفظ اللاتيني Culture بمعنــى حــرث الأرض وزراعــتها، وظل هذا المدلول مرتبطاً مع المــصطلح علــى مــستوى الفكر اليوناني لفترة طويلة، حتى أن بعض فلاسفة الــيونان وصــفوا الفلــسفة على أنها Mentis Culutre بمعنى زراعة العقل وتنميته.

والمتتــبع لسيرة مصطلح Culture في الكتابات الحديثة، يلمح جيداً سيطرة تعريف تايلور في كتابه الذائع Primitive Culture سنة ١٨٧١، والذي سبق أن أشرنا إليه .

وقــد أحــصى كروبير وكلوكهون Krpber & Kluckhon سنة ١٩٥٢ ما يزيد عن ١٦٤ تعريفاً للثقافة ابتداءً من كونها سلوكاً متعلماً، وحتى كونها أفكاراً في العقل، أو تشييداً منطقياً، أو رواية إحصائية، أو ميكنة الدفاع عن النفس، أو تجريداً من السلوك، أو ديناً بديلاً من حيث دورها في تحسين الحياة، أو طوباوية تعد بتحقيق الذات وإقامة التفاهم بين الجماعات. (١)

ويمــثل مصطلح الثقافة، المقولة الأساسية لعلم الأنثربولوجي، وتتحدد فلسفة وأهداف هذا العلم من خلال هذا المصطلح. فضلاً عن معظم نظريات هذا العلم تنطلق من فكرة الثقافة .

وينطلق علم الأنثربولوجي عند تعرضه لفكرة الثقافة من ثلاث قواعد أساسية تندرج فيها جهود علمائه وتنبع منها نظرتهم وتحليلاتهم، وهذه القواعد هي :

١ - إن المجتمعات تسير في نسق تطوري في نمط متصاعد انطلاقاً من الحالة البدائية الأولى - التي وجد عليها الإنسان في مرحلة ما بعد انفصاله عن عالم الحيوان - إلى المرحلة الراقية التي وصل إليها المجتمع المعاصر. وبذلك يتم تقسيم المجتمعات طبقاً لمعايير نابعة من مفهوم Culture بمعناه العام بحيث وضع سلماً تدريجياً يمكن تصنيف المجتمعات طبقاً لمدى اقترابها أو ابتعادها عن الـ Culture السائدة في المجتمع الأوروبي المعاصر، ومن ثم ظهرت مفاهيم مثل اللحاق بالركب، تضييق الفجوة، التحديث .. إلخ. (٢)

٢ - إن الـ Culture تنشأ في مجتمع معين ثم تنتشر إلى المجتمعات الأخرى في ما يسمى " الانتشار الثقافي " أي انتقال الثقافة من مجتمع لآخر، لأن أي مجتمع لا يخل من ثقافة أو مضامين ثقافية. لكن القول بانتقال الثقافية من المجتمع الأكثر رقياً إلى المجتمعات الأقل تطوراً يمثل رؤية استعمارية تهدف إلى إلغاء ثقافة الشعوب الأصلية أو تهميشها، ومن هذا المنطلق ظهرت مفاهيم استعمارية مثل أمانة الرجل الأبيض، الدور التحضيري لأوروبا، الثورات الثقافية .

٣ - التثاقف أو المثاقفة Acculturation، ويقصد بها تأثر الثقافات بعضها ببعض نتيجة الاتصال بينها أياً كانت طبيعة هذا الاتصال أو مدته، فهي عملية يتم من خلالها حدوث تغيير في الظواهر الثقافية نتيجة لحدوث احتكاك مباشر بين جماعتين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين، وهذه التغيرات التي تجتاح الأنماط الثقافية السائدة يمكن أن تشمل إحدى الجماعتين أو الاثنين معاً .

ويحاول البعض إضافة مصطلح آخر إلى جانب التثاقف وهو التحول الثقافي Transculturation فإذا كان التثاقف يعني تبادلاً متساويا، فالتحول الثقافي يشير إلى عملية نقل ثقافة معينة وفرضها على السكان الأصليين .

وليس من شك أن هذه الرؤية الأنثربولوجية ،أثرت على نحو واضح في فكر العلوم الاجتماعية عند تناول قضية " الثقافة - الحضارة " حتى أن معظم تعريفات الثقافة انطلقت من هذه الأفكار. وفي إطار هذا التداخل بين مفهومي

الحـضارة والثقافة، نشأ تياران لدراسة " الحضارة " الأول يركز على الجوانب المادية في المجتمع مثل الاقتصاد وإنتاج السلع والتقنيات، والثاني يركز على الجوانب الاجتماعية والثقافية كالأديان واللغات والآداب والفلسفة والعادات والتقاليد. وربما لا يحقق هذا الانقسام، الرؤية الأوسع لمفهوم " الحضارة " والذي نظر إليها من توجهات مختلفة، فهناك فريق يرى أن الحضارة تمثل قيماً اجتماعية وثقافية عامة تنهض على أساس قيم عالمية تعبر عنها الأديان العالمية والأنساق الأخلاقية والقانونية والتقنية. ويذهب فريق ثاني إلى أن الحضارة تعبر عن المظهر الكيفي للمجتمعات الواسعة التي تجلت في التاريخ العالمي أو التي ما زالت موجودة حتى الآن، وعادة ما يشار في هذا الصدد إلى المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية والحضارة الإسلامية والهندية والبوذية ... إلخ. ويحاول فريق ثالث تجريد معنى الحضارة، حينما يصفها بأنها النظرة للمجتمع بكل مكوناته التي تكفل له البقاء (سياسية وعلمية واقتصادية واجتماعية وثقافية ..إلخ). أما الفريق الرابع فيرى أن معنى الحضارة يتضمن محصلة النشاط الإنساني الذي تشكله المكونات المادية والتقنية والاقتصادية للحياة العامة والمؤسسات الاجتماعية. وفي رؤية أكثر تقدماً يعتقد فريق خامس أن الحضارة هي المجتمع الإنساني المنظم جيداً والذي يمد الشخصية بالحقوق الأساسية بما يتضمن ذلك من حق الملكية وحرية الضمير وحرية اعتناق الأديان، ومن هذا المعنى اشتقت عبارة السلوك الحضاري. ومن الرؤى الضيقة نسبياً، تلك التي تختزل فكرة الحضارة في التقدم التكنولوجي، ويذهب أنصار هذا المفهوم إلى ارتباط الحضارة بالبناء الاجتماعي الحديث السائد في الدول المتقدمة التي حققت مستوى مرتفعاً من التنمية التكنولوجية مصحوبة بشبكة واسعة من المؤسسات المدنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادي والقانونية، والتي تمد المجتمع بمعدلات ثابتة من التنمية. ويتم في هذا السياق تجاهل الحضارات التاريخية التي لم تنبع من الغرب والتي دخلت في إطار التاريخ الحضاري .

وأي كانت الرؤى المختلفة لمفهوم " الحضارة " فإن الاتفاق على المفهوم شرط أساسي لممارسة عملية " حوار الحضارات " والأحرى بنا أن نوضح مفهومنا للحضارة على أنها تمثل تكويناً منظومياً متكاملاً لمختلف الجوانب

الماديـــة والمعنوية للمجتمع في إطار علاقة الإنسان ببيئته (الطبيعية، والمشيدة، والاجتماعية)، ولا يخل فهمنا للحضارة من البعدين الزماني والمكاني، فلا يمكن تجاهل الميراث الحضاري التاريخي، والتمايز الحضاري الجغرافي .

أمـــا مـــصطلح " الحوار " فيقصد به محادثة شخصين أو أكثر لتبادل الآراء حول موضوع معين أو عدد من الموضوعات بهدف الوصول إلى اتفاق. وجاء فـــي مخـــتار الـــصحاح: والمحاورة بمعنى المجاوبة، والحوار التجاوب، وفي القامـــوس المحيط: واستحاره بمعنى استنطقه .. وما أحار جواباً بمعنى ما رد جـــواباً، وحوره تحويراً بمعنى رجعه، والتحاور بمعنى التجاوب، وتحير الماء بمعنى دار واجتمع .

ويعـــد الحوار، وسيلة للتفاهم بين الدول والشعوب عن طريق من يمثلهم من أجـــل تـــضييق شـــقة الخلاف وتقريب وجهات النظر المتضاربة أو المتباينة. ووردت كلمة الحوار في القرآن الكريم ثلاث مرات منها قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ (الكهف: ٣٧) .

دعوة الإسلام إلى الحوار بين الحضارات :

احـــتك المـــسلمون بمختلف الحضارات الإنسانية بروح وعقل متفتحان دون حـــساسية ولا افـــتعال، ولذلك فقد أخذوا عن الآخر وتأثروا به، وفتحوا ينابيعهم لغيـــرهم بإيمان راسخ بأن تقدم الإنسان – أي إنسان – وفي أي مكان يُعد تقدماً للبـــشرية جمعـــاء. وكـــان مـــبدأهم الأساسي: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَـــوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥). ذلك أن منهج الحـــوار في القرآن يعتمد على مخاطبة الناس بالحسنى ووفق مستواهم الثقافي، ولا يتوقف الحوار عند هداية من نحاوره (أو عدم هدايته) ذلك أن الله يهدي من يشاء: ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية: ٢٢)، ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية: ٢١)، ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (القصص: ٥٦).

ولم يكن الحوار في القرآن بهدف تحقيق الغلبة، فهي ليست معركة، ومن ثم يطالبـــنا المولى بتحري العدل مع الآخرين: ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (المائدة: ٨) .

إن نظـرة الإسلام إلى البشر على أنهم أسرة واحدة تنتمي لأب واحد (كلكم لآدم، وآدم مـن تـراب) ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١) .

ويحتـرم الإسلام الفروق بين الشعوب والأمم، وينكر التمايز بين البشر على أساس من الجنس أو اللون أو العرق: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجـرات: ١٣). ويضع الإسلام الأسس لحوار الأديان بوصفه مقدمة لحوار الحضارات، فيطالب المسلمون بالحسنى عند مجادلة أهل الكتاب: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْـلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وتؤكد الآية على التمايز والاختلاف والقواسم المشتركة، وتلك الأخيرة ينبغي أن تكون أساس الحوار بين الأديان والحضارات .

وتتجلـى دعـوة الإسـلام للحوار بين الأديان في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَـتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمـران: ٦٤)، فمع صدق الدعوة للحوار بين الأديان تبقى الحقيقة الماثلة في نقاء التوحيد وتنزيهه عن الشرك .

والإسلام ديناً سمحاً، بل إن السماحة منهاج وخلقٌ إسلامي: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُـمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) .

ويتجلى أيضاً، بلاغة القرآن وسماحته في حوار الأديان عندما خاطب المولى الكـريم رسوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩) .

ويهـدف الحـوار فـي الإسلام إلى دعوة الناس إلى سبيل الله، أي الطريق المـؤدي إلى إقامة المنهج الرباني على الأرض، ويؤكد الإسلام على أن يكون

الحـــوار بالحكمة أي التعقل، والاعتدال وإحكام الأمور، أي أن الحوار ينبغي أن يتـــسم بالموضوعية والانفتاح والرغبة الحقيقة لتحقيق الغايات النبيلة. ولم تحظ فلـــسفة أرضـــية بما حظيت به الفلسفة الإسلامية من نهج عميق بليغ في الجدل بوصـــفه مرحلة مهمة من مراحل الحوار: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥). هكـــذا تعكس الآيات القرآنية قيمة الحوار وفلسفة التعايش والحضارة الإسلامية تعترف بالآخر على نحو لم تشهده أي حضارة من قبل: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون: ٦) .

ولم تفترض الحضارة الإسلامية آخر مغايراً أو مضاداً، ولم تشيد جداراً بينها وبـــين الحـــضارات الأخرى، لقد بنى المسلمون حضارة مفتوحة على العالم لا انفصام بينها وبين أصحاب الديانات أو الثقافات الأخرى، ولا استعلاء على من يخالفونها في الدين ونمط العيش ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَـــمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨) هكذا يأمرنا الإسلام أن نقيم علاقاتنا مع الغير على السلام وعلى الأمان وعلى التعارف والتحاور، مادام هذا الغير يبادلنا هذا السلام وهذا الأمان وهذا التعارف .

حوار الأديان مقدمة لحوار الحضارات :

تعتبـــر الأديان، مصدراً مهماً للحوار الحضاري، لأنها في المقام الأول تقدم خلفية مشتركة من العلاقات المتوازنة بين البشر وخالقهم، وبين البشر وبعضهم. وتقدم الأديان مجموعة من القيم الإيمانية التي تحقق توازن الفرد وطمأنينته مما ييسر سُبل الحوار ويدعمه. وتمثل الأديان عنصراً حيوياً وأساسياً في الحضارات الإنسانية، وعندما حاول آرنولد توينبي، إحصاء الحضارات البشرية، لم تصادفه حـــضارة واحدة دون ركيزة عقائدية أو دينية منذ الحضارات القديمة في مصر وبابل وحتى اليوم، ذلك أن العقيدة ليست أمراً ثانوياً في بنية الحضارة وتكوينها، بـــل تمـــثل العنصر الأساسي الذي يمدها بطاقة القيم والأخلاق، ويمدها بالمعنى الحقيقي للوجود الإنساني. الإيمان بالله الحق المطلق وبمعنى المصير إليه تمثلان خلفـــية مشتركة لالتقاء بني البشر، وتأكيد على رسالته السامية في الوجود. ولقد

فشلت كل المحاولات لإقامة حضارة خالية من النبض الروحي بعيدة عن الفكر الديني. وعلى الرغم من الحضارات الإنسانية التي تعاقبت على بني البشر، وحتى تلك التي بلغت ذروتها مع أفول القرن العشرين، فإن الإنسان ما زال يبحث عن الحقيقة، ولم تتمكن هذه النجاحات المادية أن تشبع وجوده وتمده بالسعادة الحقيقية، سوف يجد ضالته في جوهر الدين ومضمونه .

أ- الإسلام واليهودية - ربما تكون فترة سعديا جاعون إلى الأيام الأخيرة لموسى بن ميمون وابنه إبراهيم تمثل ثقافة إسلامية - يهودية (من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر الميلادي)، ذلك أن إنتاجهم العلمي يعتبر ثمرة فترة تكونت على مدى مئات السنين من الإبداع والخصوبة الثقافية التي ازدهرت في ظل الثقافة الإسلامية المتسامحة. وكذلك ينبغي النظر إلى أن استخدام هؤلاء اليهود للغة العربية لم يكن مجرد وسيلة استخدموها للتعبير عن آرائهم، بل باعتباره جزءاً لا يتجزأ من ثقافة دينية استوعبوها وتمثلوها. والحقيقة أن تاريخ العلاقات بين المسلمين واليهود إبان عصور النهضة الإسلامية لم يكن كله تناحراً، وسجل الدول الإسلامية تجاه اليهود أفضل من سجل الدول المسيحية، وعلى الجانب الآخر لم يكن الكُتَّاب اليهود في هذه الفترة يميلون إلى التعبير عن عداء شديد للإسلام. إن كراهية اليهود للمسلمين والعرب لم تتجسد على النحو الذي نراه اليوم إلا بعد ظهور الحركة الصهيونية، ويحوى مشروع الحركة الصهيونية ذاته صراحة إبعاد السكان العرب الأصليين من أراضيهم، وبذا يحوي - ضمناً على الأقل - إنكاراً عنصرياً للحقوق العربية .

ويذهب هافا لازاروس Lazarus إلى وجود ثلاثة وجهات نظر مهمة في هذا المجال: الأولى: أنه بالإمكان التعرف على فترتين متميزتين في العلاقات المتبادلة بين الإسلام واليهودية، ففي الفترة الأولى - وهي تشمل القرن السابع وربما القرن الثامن الميلادي - أثرت اليهودية أكثر من أي دين أو ثقافة أخرى على الإسلام. أما الفترة الثانية وهي تمتد من القرن الثامن الميلادي، كان للإسلام، والذي كان آنذاك قد أصبح ثقافة غنية ومركبة، تأثير عميق على الثقافة اليهودية. ومن أمثلة هذا التفاعل، النية (أو ما يعرف بالعبرية " كافانا " ويقصد

به التهيؤ المصاحب للقيام بعمل ديني ما). إذا كان للمفكرين المسلمين تأثير كبير في هذا المجال، ونسب للرسول الكريم ﷺ " إنما الأعمال بالنيات " أو " نية المؤمن خير من عمله "، والتي تطورت في الفكر اليهودي لتأخذ صيغة " إنني جاهز مستعد لأداء الصلاة أو الشعيرة الفلانية .. " وما كان هذا المفهوم سيتطور في اليهودية بهذه الصورة دون تأثير الإسلام .

الثانية: لقد قامت العلاقات المتبادلة بصورة دائمة بين هاتين الثقافتين الإسلامية واليهودية في حضور ثقافة دينية ثالثة لها علاقات قوية بكل من الإسلام واليهودية ونقصد بذلك المسيحية. ولقد أعطى الإسلام " أهل الكتاب " أو " أهل الذمة " كما كان اليهود والمسيحيون يُسمون، الحماية والحرية لممارسة شعائرهم الدينية .

الثالثة: تقودنا إلى سمة رئيسية وأساسية في العلاقة بين اليهودية والإسلام (ويمكن إضافة المسيحية)، فقد شهدت فترة النهضة الإسلامية نوع من التضامن الديني الثقافي، خاصة في منطقة المشرق العربي، ويتضح هذا التضامن في تمجيد الله في خلقه وفي الطبيعة وفي خلقه للحيوانات والإنسان ومن الأمثلة المهمة أيضاً على الالتقاء بين الديانتين أن نجد لدى اليهودية والإسلام، شرع شفوي، بالإضافة إلى الشرع المكتوب، والذي يتكون أساساً من أقوال وأفعال النبي ﷺ (السنة). وعند بدء تدوين " السنة " استخدام معارضو تدوينها نفس الحجج التي قال بها الحكماء اليهود الذين عارضوا كتابة الشرع الشفوي (وذلك بقولهم: هل سنجعل التوراة توراتين؟)، على أن جولد تسيهر Goldziher يرفض وبشدة افتراض وجود أي تأثير يهودي مباشر في هذه الحالة .[٣]

ولكن التأثير الفلسفي والكلامي الإسلامي على الفكر اليهودي في العصور الوسطى، وعلى تاريخ وطريقة حياة اليهود الذين عاشوا في ظل الثقافة الإسلامية، أصبح الآن معروفاً تماماً، لقد تجاوز هذا التأثير فكرة اللغة العربية والكتابة بها إلى استيعاب روح الثقافة الإسلامية وتمثلها. ولم تخل العلاقة بينهما من وجود تشابه يمكن أن يكون أساساً وخلفية مشتركة للحوار .

ويضاف إلى ما ذكرناه سلفاً، فلقد امتلك كل من الإسلام واليهودية نوعاً خاص من التراث الفقهي (الشريعة، والهالاخا) الذي يحقق وبدرجة كبيرة ما

يحققه أو يقوم به في الثقافات الأخرى القانون المدّون المكتوب، وقد أثر هذا التراث على صياغة العلاقات والحياة الاجتماعية لدى المسلمين (الشريعة) واليهود (الهالاخا) .

أ- الإسلام والمسيحية - رغم أن الاختلافات اللاهوتية حول مفهوم التوحيد وعلاقة الإنسان بالله وبالعالم كانت كبيرة، فإن المسلمين كانوا مستعدين لتجاوزها مقابل الاعتراف بنبوة النبي محمد ﷺ من جانب المسيحيين. أما المسيحيون فقد كانوا على استعداد لتنازلات كبيرة في شتى المجالات إلا في هذا المجال، لأن ذلك يعني إلغاءهم. ذلك أن الاعتراف بنبوة النبي ﷺ وهو في نظر نفسه وأتباعه والقرآن خاتم النبيين، وناسخ الرسالات السابقة، يعني انتقالاً من المسيحية إلى الإسلام .[٤]

هذه مثلت نقطة الخلاف الأولى بين الديانتين، وأثارت الجدل في القرنين السابع والثامن الميلادي، أضيف لها قضايا جدلية أخرى تبدأ من القرن التاسع وتستمر حتى اليوم مثل: الوحدانية والتثليث، وألوهية المسيح، والصلب والفداء، وتحريف الكتب المقدسة. وأي كانت ثقافة الجدل الدائرة بين المسلمين والمسيحيين، والتي كان فيها جداليي المسلمين على درجة أفضل من الوعي والمعرفة بالمسيحية من معرفة جداليي المسيحية بالإسلام، فإن المسلمين والمسيحيين إبان عصر النهضة الإسلامية أو ما قبلها أو بعدها تجاوروا على مقبول نسبياً في ظل السيطرة الإسلامية وأنتجوا حياة ذاخرة بالعطاء الإنساني، فعلى حين تراجعت ثقافة الجدل تحت تأثير الإشكاليات الكبرى، استمرت ثقافة الحياة والمجتمع .

ولقد كان موقف مسيحية القرون الوسطى من الإسلام مبني على محورين أساسيين: الأول ضرورة الأخذ من الحضارة الإسلامية الناهضة وقتئذ، والثاني: لابد من محاربة هذا الدين، لأن الإيمان به يعني إلغاء الديانة المسيحية.

ففي العصر الوسيط تحديداً، أي في زمن المبادلات الثقافية الأكثر فعالية، تشكلت في الوعي المسيحي القوالب النمطية الذهنية عن الإسلام، وهي التي

نشأت في كثير من جوانبها بارتباط مسبق بنوع وطبيعة الموقف التقليدي للكنيسة من الإسلام. وكان المشكل يتمحور حول إيجاد سند ديني مسيحي للإسلام ونبيه، ولهذا يمكن القول أن التصورات الغربية المعاصرة حول دين المسلمين انعكست في مرآة قديمة مشوهة تتمثل فيما ورثه سكان أوروبا المعاصرة عن أسلافهم من القـرون الوسطى من مجموعة من الأفكار عن الإسلام. وفي الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر جرت في أوروبا عملية فكرية بطيئة، ضمن إطـار دائرة ضيقة جداً من المختصين فيما يتعلق بتراكم المعارف العلمية عن الشرق العربي والإسلامي .(٥)

وفـي بدايـة القـرن العشرين، حدثت تغيرات جوهرية في علم الإسلاميات الكاثوليكـي، متـصلة بالابتعاد عن التفسير التقليدي للعقيدة الإسلامية، وقد قام بالخطـوة الحاسـمة فـي هـذا الاتجاه لويس ماسينيون Louis Massignon (مستـشرق وعالم فرنسي توفى سنة ١٩٦٢، وكان عضواً بالمجمعين العربيين فـي القاهـرة ودمـشق) وفـي رأي الدارسين، فإن مؤلفاته وإسهاماته العلمية، ومـنطلقاته الـروحية، ونـشاطاته السياسية، مهدت الطريق للتحول الكاثوليكي الجـذري بـشأن الموقف من الإسلام، فخلافاً للمنهج العدائي المسبق من طرف أغلبية علماء الإسلاميات الغربيين، فإن لويس ماسينيون بنى موقفه تجاه الإسلام انطلاقـاً من فكرة " الاتصال والارتباط" الديني بين المسلمين والمسيحيين. وقد رأى أن فـي هـذا الارتباط بالذات آفاقاً واقعية عريضة أمام الفهم المتبادل بين أتباع هاتين الديانتين الكونيتين .

ولقد أثارت مخاوف ماسينيون الشديدة مظاهر التصادم بين الحضارة الغربية المعاصرة والمجتمع الإسلامي التي كان من نتائجها – وفق رأيه – أن المجتمع الإسلامي أصبح أمام خطر حقيقي، يتجلى في فقدان شخصيته المستقلة. وبخلاف زملائـه ومعاصـريه مـن المستشرقين وعلماء الإسلاميات، مثل كارل بيكر Beeker الذي يعتقد بإمكان تكيف العالم الإسلامي مع الحداثة والمعاصرة، من خـلال تحـديث الإسلام ذاته عن طريق تخليه عن أطروحات القرون الوسطى واسـتبدالها بمقولات أحدث وأكثر عصرية. إن ماسينيون يخشى على حضارة الإسلام من أن تضيع في غمار الهجمة الغربية .

ومن حيث الجوهر فإن أساس أطروحة لويس ماسينيون تكمن في الاعتراف بديانة الإسلام باعتبارها الوريث الشرعي لإسماعيل ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام. وبحسب رأي ماسينيون، فإن الإسلام جاء بمنزلة ضمير لليهودية والمسيحية. وأن ظهوره في العالم إن هو إلا " إنذار إلهي " وانطلاقاً من المرتكزات الفكرية الأساسية، يرى ماسينيون أنه من واجب المسيحيين الاعتراف " بالمصداقية النسبية " للقرآن الكريم. ولقد أولى ماسينيون أهمية كبيرة أيضاً لدراسة المسائل اللاهوتية العامة التي تتسم بأهمية رمزية، وتشكل محطات أساسية في تاريخ العلاقات التفاعلية المتبادلة بين الإسلام والمسيحية مثل: تبجيل " مريم العذراء " في الإسلام والمسيحية، والتقديس المشترك (الإسلامي – المسيحي) لأهل الكهف، ومعاهدة نجران بين النبي محمد ﷺ والنصارى، والملامح المشتركة بين الزهد المسيحي والإسلامي .. إلخ. ويعتقد ماسينيون أن متابعة بحث تلك المحطات المشتركة (بين الديانتين) من شأنها تهيئة الأرض الطيبة لحوار لاهوتي مثمر بين الإسلام والمسيحية .

على أنه يمكن أن نميز في الدراسات الكاثوليكية المعاصرة عن الإسلام اتجاهين أساسيين: الأول أكثر انفتاحاً على الإسلام وقبولاً يمثله لويس ماسينيون وأتباعه، ويطلق عليه الأب جورج قنواتي اتجاه " الحد الأعلى ". ويعترف أنصاره بصورة أو بأخرى بالطابع الإلهي للقرآن، وينظرون إلى الموقف القرآني الرافض لبعض المعتقدات المسيحية مثل الثالوث والتجسد الإلهي بأنه موقف نسبي غير مطلق، وهم يرون أن هذا العمل العظيم، المتمثل في ترسيخ أركان الإسلام، الذي صار عقيدة كثير من الشعوب، وما رافقها من نشوء ثقافة إسلامية ذات ملامح متميزة، لابد أنه يحظى بعناية ومباركة إلهية، فقد استجاب الرب لطلب إبراهيم بمباركة ولده البكر إسماعيل – جد العرب " وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثني عشر رئيساً بل وأجعله أمة كبيرة " [التكوين، الإصحاح السابع عشر: ٢٠].

أما الاتجاه المضاد في الدراسات الكاثوليكية المعاصرة حول الإسلام، فيتمثل في التيار المنغلق أو " المتحفظ " إزاء الإسلام، ويطلق على أتباعه " أصحاب الحد الأدنى " في الانفتاح على الإسلام أو الاعتراف به أو

التقليديون " الذين يتابعون تفسير الإسلام وفق أسوأ الأطروحات التقليدية للقرون الوسطى، الذي يرى في الإسلام محاولة فاشلة قام بها حاخام، مكي لتهويد العرب مستخدماً لهذه الغاية محمداً ﷺ. وبين التيارين السابقين، ينبثق تيار ثالث قريب من الموقف الرسمي للكنيسة المعاصرة – موقف الود والانفتاح والحوار مع المسلمين مع أن موقفهم بالنسبة لنبوة محمد ﷺ والطبيعة الإلهية للقرآن أكثر تحفظاً. وخلافاً لتيار " الحد الأعلى " في الانفتاح على الإسلام، فإن أنصار التيار الثالث يسعون لبناء رؤيتهم للإسلام انطلاقاً من التراث الإسلامي ذاته. وينطلق موقفهم من ضرورة الحوار والتقارب مع الإسلام في الميادين الاجتماعية، السياسية، الثقافية، الروحية، مع ابتعادهم عن المنطقة التي لا تمس، أو التي لا تتحمل المناقشة المفصلة لحساسية الأمر، ونعني بها المسائل المتعلقة بالأسس والمبادئ العقائدية الكبرى في كلا الديانتين .(٦)

إن عناصر الاتفاق بين الديانتين كثيرة، فهما ديانتين سماويتين ذات منبع إلهي، وأنهما شرقيتا الهوية، إن القائلين بأن المسيحية تتميز على الإسلام بالتقدمية والحداثة، أخطئوا قراءة التاريخ: ترى ماذا كان يقال عن الديانتين عندما كان العالم الإسلامي مركز إشعاع حضاري والعالم المسيحي غارقاً في ظلمات الجهل والتخلف ؟

ونخلص مما سبق إلى أن الحوار يبدأ بخلفية مشتركة وجدانياً متفق عليها، ونذكر هنا رؤية مبدئية يمكن أن تساعد على الحوار البناء، ألا وهي رؤية جب Gibb :

– لا توجد ثقافة ما تستطيع أن تستوعب تأثيرات ثقافة أخرى ما لم تمتلك الثقافتان بعض الخصائص المتشابهة وذات الصلة ببعضها البعض، وأن تكون هنالك أرضية قد أعدت لنشاطات مماثلة .

– يعد تمثل واستيعاب التأثيرات الأجنبية (على نحو موضوعي) علامة أو إشارة على حيوية الثقافة أو الدين المتلقي لهذه التأثيرات .(٧)

فقه الحوار الحضاري :

ليست هناك ثقافة مغلقة على نفسها، فكل الثقافات تتأثر وتؤثر في بعضها البعض، وليست هناك ثقافة جامدة تستعصي على التغيير، فكل الثقافات في حالة

حـــركة مستمرة بتأثير من قوى خارجية وداخلية على السواء. وفي ضوء ذلك، فإن حاجة الناس إلى العيش والعمل معاً في سلام تؤدي إلى احترام كل الثقافات أو على الأقل بالنسبة للثقافات التي تقدر التسامح واحترام الغير، ومن ثم ينبغي أن نقدر الاختلافات الثقافية ونحاول أن نتعلم منها .[٨]

والـــتفاعل الثقافـــي هو تعبير عن توازن القوى بين الثقافات. وقد كانت قوة العقل اليوناني وراء الحوار الثقافي بين الفلسفة اليونانية والإسلام الوليد. وكانت قـــوة الـــتجاوز وراء العلاقـــة الثقافية بين العلوم والفلسفة الإسلامية من جانب والفلـــسفة المـــسيحية في العصور الوسطى من جانب آخر. وكانت قوة الالتقاء الأندلسي وراء التعايش والتكافل بين الثقافات الإسلامية واليهودية والمسيحية في أســـبانيا. وكانـــت، ولا تـــزال قـــوة السيطرة وراء التفاعل الثقافي بين الثقافة الأوروبية الحديثة، وثقافات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. والأمثلة عديدة على هـــذين النموذجـــين البديلـــين، نموذج التصارع ونموذج الحوار، والتحدي الذي يواجهـــنا هو متي يوجد كل من هذين النموذجين وتحت أي ظروف وإذا كان نموذج التصارع هو الموجود حالياً فما هو السبيل والوسائل لتغييره إلى نموذج الحوار ؟[٩]

تلـــك هـــي الصيغ المطروحة، ولا فكاك من التعامل معها، والسبيل إلى ذلك يقتـــضي معرفة الدوافع وراء هذه الصيغ أو النماذج البديلة. والبحث ينبغي أن يكـــون وراء النموذجين البديلين، فبالقدر الذي نحتاج فيه لتحقيق نموذج الحوار، نحتاج – وبإلحاح شديد – أن نوقف طاقة الصراع التي استبدت بطبيعة التفاعل الحـــضاري، ومـــن ثم نطرح مقولة " فقه الحوار الحضاري " لكنها تتضمن – وبارتـــباط عـــضوي – فقـــه الصراع الحضاري، ذلك أن النموذجين متلازمين والانتقال بينهما ليس بالأمر العسير .

ويحـــدث نمـــوذج الـــصراع عـــندما تجعل إحدى الثقافات من نفسها الثقافة العظمـــى، بيـــنما كـــل الثقافات الأخرى ثقافات صغرى، والعلاقة بينهما غير مـــتوازنة، لأنهـــا علاقة بين الأعلى والأدنى. ووفقاً لهذه العلاقة، تسعى الثقافة الكبرى إلى التدخل في الثقافة الصغرى لتطويرها أو تحديثها أو نقلها من التخلف

إلـــى الـــتقدم. على حين تحقق الثقافة الكبرى أهدافها الذاتية من نهب واستلاب واستبداد وطمس الهوية الوطنية للثقافة الصغرى .

وقـــد حدث ذلك بالفعل في حالة الثقافة الغربية تجاه الثقافات غير الغربية في أفـــريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية من خلال عمليات نهب الثروات وقهر الشعوب واســـتبدال اللغـــات الأصلية بلغات المستعمر ووصم العادات والتقاليد الأصلية بالـــتخلف والجهل، ومن ثم محيت ثقافات أصلية ذات تاريخ طويل وحلت محلها ثقافة المستعمر باعتبارها تتويجاً لكل الثقافات والصيغة النهائية لمسيرة الإنسانية، وذهب بعض المفكرين إلى تكريس وتأكيد هذه الرؤية مثل فوكوياما الذي اعتقد أن نهاية المطاف هي الليبرالية الغربية، وسينتهي عندها التاريخ، بل إن التاريخ نفـــسه اختـــزل فـــي ثلاثة مراحل تمثل الحضارة الغربية (القديم – الوسيط – الحديث)، فكأنما الغرب هو تاريخ البشرية، وماعداه لم يكن موجوداً من قبل .

أمـــا نمـــوذج الحوار، فيحدث عندما تتساوى كل الثقافات وتتعامل فيما بينها بندية وإدراك لدور كل منها في مسيرة الحضارة الإنسانية دون استعلاء إحداها على الأخرى، وتسعى الثقافات المختلفة – في ظل نموذج الحوار – إلى التفاعل الإيجابـــي والتواصل والتلاقح في إطار علاقات تبادلية متوازنة تقوم على الأخذ والعطاء .

ويظهـــر نموذج الحوار في العلاقة بين الفلسفة الإسلامية من جانب والفلسفة اليونانية من جانب آخر. فقد استعارت من الأخيرة لغتها ومنطقها، لكنها أعادت استخدامه على نحو جديد في إطار نظرية المعرفة الإسلامية، ولم يكن انتقال هذا الفكـــر اليوناني إلى الغرب – في الأغلب الأعم – إلا من خلال ترجمة ناضجة مـــبدعة للعلماء المسلمين، فقد اختبروا هذا الفكر ونقحوه وطوروه، حتى أن ما كتب في هوامشه من شروحات وتفسيرات ونقد وإضافات، لا يقل في أهميته عن النصوص الأصلية .

فـــي نمـــوذج الحـــوار يمكن لكل الثقافات المتساوية أن تشارك في الأهداف المـــشتركة وأن تتقاســـم نفـــس القانون العام، على أساس من العقل والحق في المعرفة والطبيعة واستخدام قوانينها، وحق الإنسان والشعوب في الحرية والعدالة الاجتماعية والرفاهية. لقد سعت كل الشعوب والثقافات من أجل مُثل التنوير التي

ظهـرت فـي التعايش الأندلسي. وفي نموذج الصراع، فإن هذه المثل إنما هي للـذات فقـط، وليـست للآخـر الذي ينبغي أن يبقى في غمار الجهل والسحر والخـوف والقمـع والاستغلال والفقر. لقد تحطمت مُثل التنوير الأوروبية عند حـدود أوروبـا مـولدة نموذج الصراع، بينما تجاوزت مُثل التنوير الإسلامي الشعوب والأمم مولدة نموذج الحوار .(١٠)

وتبدو آلية الحوار وآلية الصراع على النحو التالي :

آلية الحوار بين الحضارات	آلية الصراع بين الحضارات
الفلسفة :	
١- تبنـي علـى المساواة والـندية والتواصـل والتلاقح الحضاري.	(١) تبنـي علـى التقسيم وعدم المساواة وفرض التبعية .
٢- تـنوع الثقافات يشكل أرضية أساسية للتعاون .	(٢) التعدد والتنوع أساس وأرضية الصراع .
٣- الـبحث عـن نقـاط الاتفاق والتلاقي .	(٣) التأكـيد علـى نقـاط الاختلاف لاستئناف الصراع .
٤- النية الصادقة والتعاون أثناء البحث .	(٤) التسلط والتبعية لتعميق الكراهية والعداوة .
٥- الـسعي الجاد للتفاهم المشترك والتلاقي .	(٥) إظهـار عيوب الآخر والتشكيك في نواياه .

أسلوب العمل : ٦- وجود الثقة بين الأطراف .	(٦) تعميق عدم الثقة والتأكيد عليها .
٧- توافر الصبر وسعة الصدر .	(٧) الاستعلاء والعنف والتهديد .
٨- الشفافية والمصارحة من أجل التعاون .	(٨) التكتم والمراوغة من أجل الهدم.
٩- لصالح جميع أطراف الحوار .	(٩) أحد الأطراف أو كل الأطراف يسعى للانتصار .
١٠- يقوم على رؤية أهل الفكر .	(١٠) يقوم على سواعد العسكريين أو الإرهابيين .
١١- تحتاج إلى عقل نقاد وأخلاق .	(١١) تبني علي الإرهاب والتخويف.
الهدف النهائي : ١٢- تعميق التفاعل الحضاري .	(١٢) الانسلاخ عن الماهية الحضارية .
١٣- الطريق إلى السلام العادل .	(١٣) الطريق إلى الحروب والانقسامات .

١ - فقه الصراع :

أ - التحيز - يعتبر التحيز للنموذج، آلية مهمة من آليات الصراع، خاصة إذا قوبل بتحيز للنماذج الأخرى. والتحيز هو الانضمام أو الموافقة، وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ (الأنفال: ١٦). وتدور فكرة التحيز حول تبني رؤية ما ورفض الآراء الأخرى .

والقـضية المهمـــة في موضوع التحيز هي تبني فكرة معينة والتحيز لها ثم ترجمة هذه الفكرة إلى تعامل سلوكي، ونعتقد أن للتحيز ثلاثة جوانب أساسية:

الأول: معرفي يقوم على أساس الاقتناع بفكرة (صحيحة أو خاطئة) .

الثاني: وجداني، وهي متلازمة انفعالية تترجم الحماس للفكرة المتحيز لها .

الـثالث: ســلوكي، يترجم الفكرة إلى سلوك فعلي، وبالطبع لا تخل من هذه الدفعة الانفعالية .

ويذهب عبد الوهاب المسيري إلى وجود قاعدتين أساسيتين في فقه التحيز:

القاعــدة الأولى هي أن التحيز حتمي، حيث يرتبط ببنية عقل الإنسان ذاتها، الذي لا يسجل تفاصيل الواقع كالآلة بأمانة بالغة ودون اختيار أو إبداع (تسجيل انتقائي)، ولذا فهو يدرك الواقع من خلال نموذج فيستبعد بعض التفاصيل، ويبقى بعــضها الآخر، ويضخم بعض ما يتبقى، ويمنحه مركزية ويهمش الباقي، وهي عملــية إدراكية ليست عشوائية وإنما تتبع أنماطاً يمكن اكتشاف بعض جوانبها. والقاعدة الثانية في فقه التحيز هي أن التحيز قد يكون حتمياً ولكنه ليس بنهائي، وهذه الحقيقة، حتمية التحيز وارتباطه بالإنساني والثقافي، قد لا تكون عيباً دائماً، فــيمكن أن يجرد التحيز من معانيه السلبية، ومن ثم توضع إشكالية التحيز على مــستوى مخــتلف تماماً. فبدلاً من أن أضع تحيزي في مقابل تحيزهم، يصبح التحيــز هو حتمية الاختيار الإنساني وهذا ما يعني بأن التحيز حتمي ولكن ليس نهائياً .[١١]

وللتحيــز أنواع كثيرة، تتأرجح في مجموعها بين الذاتية والموضوعية، ومن ثم فالوصول إلى خط فاصل في هذه الأنواع أمر صعب، فهناك التحيز لما يراه الإنــسان على أنه الحق، وحينئذ يؤكده التزام وانفعال على الرغم من أنها رؤية قــد تكــون صحيحة أو مغلوطة. أما التحيز للباطل فله أشكال كثيرة: للسلطان وللذات وللقوة .. إلخ، ويقع المتحيز تحت طائلة مرجعية لا تقبل المناقشة وتكون أحكامه نهائية، ومن ثم تعكس آلية من آليات الصراع .

وهــناك تحيز واع واضح وآخر غير واع كامن، فالتحيز الواعي أن يختار الإنسان عقيدة معينة ثم ينظر للعالم من خلالها، أما التحيز غير الواعي، فهو أن

يستبطن الإنسان منظومة معرفية بكل أولوياتها وأطروحاتها وينظر للعالم من خلالها دون أن يكون واعياً بذلك .

ومن أكثر نماذج التحيز شيوعاً، التحيز للنموذج الحضاري الغربي سواء أكان ذلك من جانب الغرب أنفسهم (انظر فوكوياما ونهاية التاريخ عنده تعني سيادة الليبرالية الغربية) أو أكان ذلك من جانب غير الغربيين (انظر طه حسين ودعوته الثقافية بتقفي أثر الغرب) .

ولابد أن يواكب كل آليات تجاوز التحيز صياغة نموذج معرفي بديل، بمعنى آخر لا ينبغي أن تكون جهودنا تفكيكية وحسب تكتفي برصد تحيزات الآخر، بل يجب أن تصبح تأسيسية تطرح نموذجاً بديلاً، وثمة خطوات أولية لابد من اتخاذها لتطوير النموذج البديل :

أ – رفض تمجيد الذات، فالنقد الكلي للنموذج الحضاري الحديث واكتشاف تحيزاته لا تعني أن نقوم بتهنئة أنفسنا، فليس الهدف إسباغ الشرعية على الوضع القائم في بلادنا (وهي لا تبعث كثيراً من الرضى) .

ب – إدراك أثر الإمبريالية، فقد حطمت كثيراً من أبنيتنا الحضارية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وأنها قامت بنهب بلادنا، كما نهبت بقية العالم، ولكن يجب ألا نقف عند هذه النقطة وندرك أنها ليست نهائية .

ج – إدراك الضعف الداخلي – كما يجب ألا ندعي أن الغرب مسئول عن كل ما حدث لنا. فعوامل الانهيار والتفكك كانت كامنة في مجتمعاتنا قبل مجيئه. ولذا بدلاً من الحديث عن الاستعمار وحسب يجب أيضاً أن نتحدث عن " القابلية للاستعمار " ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١) .

د – ليست عودة للوراء – فيجب أن ندرك أن محاولة التوصل لنموذج بديل ليست دعوة " للعودة إلى الوراء "، وإنما هي تأكيد أن النماذج الجاهزة المستوردة لا تصلح لنا، ولكن المهم هو فتح باب الاجتهاد والتفكر، بدلاً من التلقي السلبي والخنوع المخجل .[١٢]

إن أمتـــنا تمتلك الكثير من آليات النهوض – إذا أخذت بنموذج بديل متناغم معها – بل أكثر من دول أخرى استطاعت أن تنهض في غضون سنوات قليلة، فميراثها الحضاري لا يضاهي، وعقيدتها كانت آلية مهمة في النهضة الإسلامية إبان العصور الوسطى، ومواردها ليست بالقليلة .

ب – الاســـتتباع – لقد تغير الزمن كثيراً، ونتذكر اليوم، الحالة التي كانـــت عليها معظم دول العالم الثالث (وخاصة الإسلامية منها) في نهاية الخمـــسينيات والستينيات والسبعينيات، فقد كان الغرب، يتثاقل بالفعل في خطـــاه ليـــرحل عـــن هـــذه الدول، وكانت هذه الدول تعتقد أن عصر الاســـتعمار قـــد ولى، وأن هذه الدول ستجد لحظة مجدها مع الاستقلال والانتفاع بمصادر ثرواتها. وبدأت فترة جديدة من الاستعمار تعتمد على محـــورين أساســـيين: الأول يرتبط بإيجاد آلية لتعميق التبعية الثقافية، وربمـــا لعبت فيها البعثات والمنح الدراسية دوراً مهماً، والثاني بتصدير نموذج غربي للتنمية، وأي كان شكل هذا النموذج، وجدواه في مجتمعاته الأصـــلية، فإنـــه ســـوف يظل نموذجاً غربياً قد لا يجد تربة مواتية في مجتمعاتنا. وعلى حين انتفضت كثير من الدول، ظلت دول العالم الثالث وخاصـــة الإســـلامية تطبق نموذجاً تلو الآخر ولكن النتائج لم تكن على الـــنحو المـــرجو، وأخذ الغرب يبحث عن أسباب داخل هذه المجتمعات لـــيقدمها على أنها سبب فشل هذا النموذج التنموي في بلاد العالم الثالث. إن الأهم من ذلك هو تعميق التبعية الثقافية والاقتصادية لتظل هذه الدول مـــرتبطة بحبل سري بالدول الغربية. ولست بهذا المنطق أحاول تصوير الغرب على أنه الشيطان الذي أعد لكل شيء عدته من أجل الاحتفاظ في يـــده بعصا القيادة، ساخراً من الدول الساذجة غير المعدة جيداً لمواجهة خبرته وحنكته، بل يسود اعتقاد لدينا بأن هذه الدول تتحمل جزءاً من بناء منظومة التبعية، وعلى غرار مصطلح مالك بن نبي " القابلية للاستعمار " تلك التي عمقت دور الاستعمار، أتقدم – وعلى استحياء – لأقدم مصطلح " القابلية للتبعية " .

لقـد بلغت بعض الدول مبلغاً من التبعية للغرب، وصل إلى حد الإذابة التامة والإدمـاج الشامل المحكوم بعلاقات التبعية الشاملة حتى إنك لا تستطيع أن تجد ملمحـاً للحضارة أو الثقافة الوطنية داخل هذه الدول. وهكذا برز الغرب عملاقاً متعالـياً في عالم من الأقزام، وجعل من نفسه مركزاً ومحور استتباع ومرجعية فكرية وعلمية ومنهجية عالمية وحيدة، تملك من المنظومات الفكرية والإعلامية ما يقنع الشعوب بشرعية ومشروعية ما يفعل الغرب. وعلى الجانب الآخر فإن النموذج الغربي يخفي في طياته أزمة يدركها جيداً كل باحث موضوعي. ولذلك فإن الطريق المناسب، ينبغي أن يتوجه لدراسة هذه الأزمة التي تجتاح الحضارة الغـربية، فـإذا كـان الغـرب قـد حقـق انطلاقـته ومركـزيته من خلال الانتصارات المعرفية والمادية في المراحل الأولى من ظهور النموذج العقلاني المادي، فقد حان الوقت أن نعيد النظر في هذه الانتصارات والنجاحات ونبين نقاط القصور والإخفاق التي ظهرت من خلال التطبيقات المختلفة لنموذجه المعرفـي، كآلية مهمة لكسر حدة التبعية التي تطبق على دول العالم الإسلامي، وتـشكل عائقـاً فـي سـبيل الحوار الحضاري، إذ لا حوار بين استعلاء دول وانصياع أخرى .

والأمـثلة العملـية كثيرة، فالمشروع الحضاري الغربي المبني على التنمية والـتحكم في المصادر وتعظيم الإنتاج والاستهلاك والتقدم المستمر اللانهائي قد ارتطـم بحائط كوني صلب، فإذا كان الإنسان الغربي الذي لا يشكل سوى نسبة ضـئيلة مـن سـكان الكرة الأرضية يستهلك ما يزيد على ٨٠% من مواردها الطبيعـية، فإن هذا يعني أن النمط الغربي في التنمية وتحقيق السعادة للأفراد لا يمكن محاكاته .[١٣]

وأي تنمية مستدامة (متواصلة) إذن، تلك التي يتحدثون عنها. إن إعادة تشكيل الـنظام العالمـي في صورتها الراهنة مازالت على منطقها الذي يعطي للغرب وسائل إطالة أمد هيمنته التي بناها عبر القرون الخمسة الماضية مستخدماً آليات قديمة بلغة جديدة لتعميق تبعيته لدى شعوب قد تكون لها القابلية.

ج – الكـراهية – الكـراهية صـفة فردية أو جماعية، إذا ارتبطت بالوعـي الجمعي لجماعة معينة. والكاره (أو الكارهون) يبالغ في تقدير

نفسه. وهو يعتقد أن العالم المحيط به أو الجماعات أو الشعوب التي تجاوره هم الذين يستحقون اللوم. والكراهية بوصفها نوع من انتفاخ النفس وتعاليها على الآخرين تجسد شعوراً بالضغينة والحقد وتسعى لتحقيق أهداف، تنال – في جوهرها – من الآخر الذي ينبغي أن ينعت بصفات مذمومة وتحقيرية. والذي يكره يفتقد كثيراً من القيم والمبادئ، والأهم من ذلك افتقاده للمهارات الاجتماعية الضرورية مثل الموضوعية والجدل والحوار. والعامل المشترك في الشخصيات أو الجماعات الكارهة هو الغياب شبه الميتافيزيقي لأي إحساس بالنسبية، فالكارهون لا يتفهمون أبداً قياس الأشياء، بل ولا واجباتهم وحقوقهم، بل لم يفهموا أبداً طبيعة وجودهم، فهم يعرفون فقط أن العالم ينتمي إليهم، ويتوقعون من هذا العالم تقديراً أو اعترافاً لا حدود له بهذه الحقيقة. وكل الكارهين يتهمون جيرانهم والعالم بأسره من خلال هؤلاء الجيران بأنهم أشرار. والكراهية واحدة، فليس هناك فرق بين كراهية فردية وكراهية جماعية، فأي شخص يكره شخصاً آخر، يكون قادراً تقريباً على الكراهية الجماعية، بل ويكون قادراً على نشرها، والكراهية الجماعية سواء كانت دينية أو أيديولوجية عقائدية أو اجتماعية أو قومية يكون مصدرها الأساسي هو القدرة على كراهية الأفراد .

وتتأسس جاذبية الكراهية الجماعية على عدة أسس، فالكراهية الجماعية تمحو مشاعر العزلة والضعف والخور والإحساس بالتجاهل والنبذ. ويعتقد فاكلاف هافيل Vaclav Havel أن الكراهية الجماعية تنشئ " أخوة " غريبة تقوم على أساس فهم متبادل لا يطلب شيئاً من الكاره أكثر من الكراهية. وليس من الصعب أن تنتمي إلى هذه الجماعة، وليس هناك خوف من أن تطرد. فماذا يمكن في الحقيقة أن يكون أكثر بساطة من اقتسام كراهية مشتركة لموضوع بعينه .[١٤]

وتكون الكراهية معولاً هداماً لأنظمة الحوار، إن لم تقف حائلاً في طريق بدايته، ولكنها في الأساس تعمق آلية الصراع وتغذيها والمثال على ذلك في علاقة الإسلام بالغرب. فقد أورثت الحروب الصليبية والمغامرات الاستعمارية ومشكلة فلسطين جذوراً عميقة للكراهية .

د - الصراعات - عندما تختلف المصالح، والقيم، والأفعال، والاتجاهات، والآراء، وتصطدم فيما بينها، تكون كلمة صراع ملائمة لهذا الفعل. وعندما يحدث الصراع علينا أن نتساءل لماذا يختلف الناس ؟ وربما يكون لهذا السؤال أكثر من إجابة. فالناس يختلفون لأنهم يرون الأشياء بصورة مختلفة، تنشأ الصراعات عندما ترى المواقف من جوانب مختلفة، ويقول دي بونو، أن كل واحد على صواب دائماً .

لا أحد على صواب أبداً. وربما تؤثر الشحنة الانفعالية والظروف البيئية المحيطة والنظرة المحدودة للأشياء، التي تمثل خليطاً من قصر النظر وضيق الأفق، عوامل مهمة في نشوب الصراع .

والإجابة الثانية، فإن الناس يختلفون، لأنهم يريدون أشياء مختلفة، فللناس قيم ومفاهيم مختلفة، وهم يريدون أن تكون لهم خيارات مختلفة. عندما تختلف هذه الخيارات مع خيارات الآخرين هنا يكون الصراع، كذلك يحدث الصراع عندما يوحي التفكير لدى طرف بتميزه على الطرف الآخر (الاستعلاء الثقافي والحضاري). وعلى نحو آخر يعتقد دي بونو أن الصراع أسلوب متوقع في حضارتنا، أي أن حضارتنا المعاصرة معدة إعداداً عالياً لخدمة الصراع، فالآمال والطموحات، المعلنة والمستترة، ولغة التعامل، كلها أمور مهيئة لحدوث الصراع. وفي لحظة الصراع لم يستطع أي من الطرفين الوقوف خارج إدراكهما الخاص. وثمة مجموعة من العوامل التي تساعد على حدوث الصراع أهمها: الخوف، سواء من المستقبل (شيء ما يمكن أن يحدث) أو الخوف من الإدانة أو الخوف من القوة. فالقوة تستخدم لبدء الصراعات، وتحريكها، وإنهائها أحياناً. وتؤدي الصراعات إلى خسائر كبيرة، فإن الاستراتيجية الأمضى والأفضل لكل الأطراف، هي التعايش بين البشر من خلال حل الصراعات أو تجنبها في المقام الأول. تأخذ الصراعات - في عالمنا المعاصر - أشكالاً متعددة، والتعبير الرئيسي لها هو محاولة فرض الهيمنة على الدول والمؤسسات والمنظمات الدولية لخدمة مصالح دول أخرى. ويعبر عن هذه الصراعات أيضاً، في تحالف القوى الكبرى لتنسيق هيمنتها المشتركة على العالم الحالي، وكذلك أدوارها وأنصبتها. وهنالك شكل آخر من أشكال

الصراع، هو ذلك الذي يفترضه البعض ما بين الدول الأرفع منزلة وقدراً، كما يطلقون على أنفسهم، والدول الأدنى منزلة التي أطلق عليها البلدان بطيئة النمو (الاستعلاء الثقافي والحضاري)، فالأرفع منزلة (وفقاً لتقديرهم) يدعمون إدارة الأزمات على حساب الأدنى مرتبة بفرض السياسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية .

فقه الحوار :

أ - التسامح - والتسامح الثقافي والحضاري - لقد حدث تغير ملحوظ في معنى التسامح، حيث كان التسامح يفهم في أول الأمر على أنه جهد يبذل لتحمل أفعال وهفوات معينة، تكون موضع لوم وشجب فيما يتعلق بالقيم التي تسود المجتمع، وقد اكتسبت بالتدريج معنى " الحق في أن تختلف "، ففكرة أن يكفل للمتحاورين مساحة من الحرية لإبداء آراء قد تبدو مختلفة عن الغير أو حتى غير منطقية، فكرة جديدة نسبياً. وليس من المؤكد أن نستطيع الفصل بين مسألة التسامح وبين التنوع الحضاري. فالخصومات الكبيرة التي تسري بين الحضارات تجعل البعض يرتاب ليس في المعتقدات - فحسب - بل أيضاً في المفاهيم ولغة التعامل، حتى أنه أصبح من السهل أن نصل إلى اتفاق حول طبيعة الشر أفضل من اتفاقنا حول طبيعة الخير وممارسته. ومثل هذه الريبة يمكن أن تشكل أساساً صلباً للتنافر واللاتسامح الحضاري. والفكرة البسيطة للتسامح تقوم على رفض الهيمنة والاستبداد وفرض طريقة معينة للعيش، إنها تشير إلى الاستقلال دون أن يكون ذلك بغيضاً من وجهة نظر الآخر. فمحاولة فرض - بالتهديد أو بالعنف الفعلي - طريقة للسلوك أو الاعتقاد على الآخر، ليست فحسب انتهاكاً للحقوق الإنسانية، بل هي أيضاً عمل لا معنى له في جوهره، والتسامح الحقيقي، ليس تنازلاً، بقدر ما هو بحث عن الحقيقة والتماساً لها .

ويكتنف مفهوم التسامح، العديد من أشكال الغموض، حتى أن البعض ذهب إلى التمييز بين التسامح الأصيل والتسامح الحديث، ويقصد بالتسامح الأصيل، ذلك الموقف الذي يتضمن تحمل (أو عدم منع) ما يجب ألا يحدث، ونصبر

علـيه. والـذي يدفـع إلى هذا التسامح هو التعقل والكياسة فيما يتعلق بجوانب الـنقص والضعف في تفكير الإنسان وتصوراته وتوقعاته، وفي كل الأحوال لا يمثل هذا تصريحاً وتفويضاً بأنه مقبول، وإنما هو عرضة للرجوع فيه والتخلي عنه. أما التسامح الحديث، فإننا نعني به هذا الشكل من التسامح الذي نشأ وتطور فـي العـصور الحديـثة، والـذي صـاغه كاستليون Castellion، وسبينوزا Spinoza، ولوك Loke، وعلى الأخص بيير بايل Pierre Bayle، فالتسامح يعنـي المـوافقة على فكرة ما باسم الحرية، وباسم المبدأ الذي يعترف به الكل، يفكـر الآخـرون ويتصرفون طبقاً لمبادئ لا نشاركهم إياها، أو نتفق معهم في شأنها. وبمعنى آخر فإن التسامح هو لازمة للحرية ونتيجة لها .

وللتـسامح منابعة في القيم والأخلاق والقانون، والأديان لها نصيبها في هذه المـنابع. ويقول بول دوموشيل Paul Dumouchel، إن التسامح الديني، أخذ شـكلاً مغايـراً في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ومع هذا سيظل مثالاً للتـسامح، فالملـل المتعددة للمسيحية لم تكن تتعارض مع بعضها البعض بشكل حـاد، ولكـن لأن كلاً منها كانت تتصور نفسها على أنها " التفسير الحق للدين الشامل " .(١٥)

فهـل هذا يعني أن التسامح الحديث يتأسس على الخلاف الديني ؟ والإسلام كـان ولازال واحـة كبيـرة للتـسامح، فهو كثقافة يؤكد على قيمة الاختلاف، والإسلام كحضارة يحتوي الآخر ويتحد معه .

وكلمـة التسامح في اللغة العربية من " تفاعل " تعني التبادلية وضبط النفس، وتعنـي الـتعامل اللطيف المتبادل، ومن ثم يحقق التسامح استقراراً للمسلم على عقـيدته، بـل وتجاوز لموضوع العقيدة، والتسامح في الإسلام يرتفع لمستوى الفـضيلة الإلهـية المقدسـة، يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (الأنعام: ١٢)، والرسول ﷺ يؤكد على فضيلة التسامح " تسامحوا مع قومي كما يتسامح معهم الله "، وفي حجة الوداع " فكلكم لآدم وآدم من تراب ". ووحـدة العقـيدة في الإسلام تدعو إلى أن يتجاوز الفرد عقيدته الخاصة، حتى يمكن أن يتقبل الآخر بخصوصياته. وهذا لويس ماسينيون يقول: إذا كان الإسلام

قد عرف بأنه الدين الحق، فلم يكن كذلك عن طريق الانفصال عن كل المظاهر الأخرى للعقيدة التي سبقته، بل التواصل معها جميعاً .

والله سبحانه وتعالى يأمر الرسول الكريم بأنه ليست مهمته أن يفرض العقيدة على الآخرين: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية: ٢١، ٢٢). فالنصوص الأساسية للقرآن الكريم تتعمق في إطلاق حرية الإرادة، يقول تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف: ٢٩) ثم يستقر المبدأ القرآني العظيم: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) .

إن حرية الوعي والإدراك متأصلة في الإسلام على نحو غير مسبوق، وينطلق منها التسامح منذ البداية. والقضية التي تطرح نفسها – بإلحاح شديد – كيف يمكن تطبيق قيمة التسامح، إذ لا يمكن أن يتم ذلك موضوعياً إلا من خلال الربط بين مفهوم التسامح ومجموعة من القيم الأخلاقية الأساسية، تلك التي لا يمكن أن يكون هناك شك حولها، فالإبادة الجماعية والرق والاغتصاب والسلب والاستبداد والعنصرية أخطاء وآثام، هل يمكن التسامح أمامها ؟. يبدو أنه من المحتمل وضع حد للتسامح من منطلق ضرورة احترام الحقيقة. وإلى أي مدى نتحمل ونتسامح ؟ فإن هذا يتطلب الموضوعية والحيادية عند الحكم على أفعال الغير. والأمر الثاني يرتبط بالضرر الذي يلحق بالآخرين .

ويتطلب التسامح أن يتخلى الطرف الذي بيده القدرة على أن يفرض على الآخرين طريقته في التصرف وأسلوبه في الاعتقاد والإيمان. ويتم ذلك من خلال المراحل التالية :

١ – إنني أتحمل – ضد إرادتي – ما لا أقره أو أوافق عليه، بل وأحياناً ليس لدي القوة على أن أمنعه .

٢ – أنا لا أقر طريقتك في الحياة والعيش، ولكني أبذل جهداً لأتفهم هذه الطريقة دون أن أتقيد بها .

٣ – أنا لا أقر طريقتك في الحياة والعيش، ولكني أحترم حريتك في أن تحيا كما تشاء، وأعترف بحقك في أن تعلن طريقتك على رؤوس الأشهاد .

٤ - أنا لا أقر ولا أعترض على الأسباب التي تجعلك تحيا بشكل يختلف عن ذلك الذي أحيا به، وربما تعبر هذه الأسباب عن علاقة بالخير تغيب عني بسبب محدودية الفهم البشري .

٥ - أنا أوافق على كل طرائق الحياة مادامت أنها لا تؤذي بشكل واضح سافر أطرافاً أخرى والخلاصة أومن بكل أنماط الحياة لأنها تعبر عن التنوع البشري .(١٦)

ب - فقه الاختلاف - إن الاختلاف في وجهات النظر وتقدير الأشياء والحكم عليها أمر طبيعي، وله علاقة بالفروق الفردية بين بني البشر إلى حد كبير، إذ يستحيل بناء الحياة وقيام شبكة العلاقات الاجتماعية بين الناس ذوي القدرات المتساوية والأنماط المتطابقة، فلا مجال عندئذ، للتفاعل والاكتساب والعطاء، ذلك أن طبيعة الأعمال، وخاصة الذهنية منها تتطلب مهارات وقدرات متفاوتة ومتباينة، وكأن حكمة الله تعالى اقتضت أن بين الناس بفروقهم الفردية - سواء أكانت خلقية أم مكتسبة - وبين الأعمال في الحياة قواعد والتقاء: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود: ١١٨) .(١٧)

لكن الاختلاف يفقد قيمته إذا تحول إلى صراع وتناحر، وتنهار كل قيم التقارب والتحاور والالتقاء والتواصل أمام الرؤية الضيقة والأفكار الجزئية المتناثرة، والرغبة في الاستعلاء والاستبداد والهيمنة، فيتحول الموقف من حوار وتواصل إلى صراع وصدام .

والتأكيد على التنوع والاختلاف ليس أمراً عرضياً في الإسلام، بقدر ما يشكل جزء أساسي من هذه العقيدة، وهذا قول الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات :١٣)، ويقول: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢). والاختلاف يوجب الانفتاح والتفاعل والتكامل. أي تكريم للإنسان مثل هذا التكريم، حينما يخلقه الخالق مختلفاً متمايزاً، ليظل طيلة عمره يبحث عن ذاته وذات الآخرين في تفاعل وتكامل، متسقاً مع شرع الله حينما نظم منظومة الكون .

ج – الحلـــم – يحاول البعض مقارنة مفهوم " الحلم " بالوداعة " أو " الاعـــتدال". فالحلم أعمق على حين تظل الوداعة أقرب إلى السطح. أو بمعنـــى آخر فالحلم " عملية نشطة إيجابية " تتضمن أفعالاً وردود أفعال، بينما الوداعة سلبية. والوداعة فضيلة شخصية أما الحلم ففضيلة اجتماعية وحـــيث يكـــون الشخص الوديع، شخص هادئ ومطمئن آمن، ولا تؤذيه الأمور التافهة، والذي لا ينفعل للحقد الذي لا مبرر له، نجد أن الحلم هو " نـــزوع " أو " مـــيل داخلي " " يشرق ويتضح " فقط في ضوء الآخر. فالـــشخص الحلـــيم هو شخص يحتاجه الآخر حتى يتغلب على الشرور بداخله، ومن هنا يظهر فقه الحلم عنصراً متمماً ومكملاً في منظومة فقه الحوار.

ويـــذهب كارلـــو ماترانتيني Carlo Mazzrantini إلى أن الحلم هو" القوة العلـــيا " الوحيدة التي تكمن في ترك الآخر يكون ذاته .[١٨] لأن الحليم مثلما هو يحيا ويرغب في الحياة يريد للآخرين أن يحيوا كذلك .

والحلـــم لـــيس فـــضيلة أخلاقية، فحسب، وإنما دينية أيضاً. فالله حليم ستار. وانظر لقول الرسول ﷺ: " ليس الشديد بالسرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ". ومن المأثورات: الحلم سيد الأخلاق .

وعكـــس " الحلـــم "، مدعاة للصراع والصدام، ذلك أن عكسه هو الغطرسة والتعالـــي والاستبداد لأنهم يمثلون نظرة الفرد المبالغ فيها إلى ذاته، والتي تبرر له الإساءة لغيره والتحقير منهم .

والـــشخص الحليم لا ينظر إلى نفسه نظرة عالية لا عن افتقاد التقدير لذاته، ولكـــنه لأنـــه أكثر ميلاً لأن يفكر في فقر الإنسان وضعفه. وغير الحليم يكون مـــستبداً يمارس السلطة من خلال كل أنواع الإيذاء وإساءة الاستغلال والسيطرة التحكمية التي لا ترحم عند الضرورة .

و" الحلـــيم " لا ينخـــرط في العلاقات مع الآخرين بنية المنافسة الحمقاء أو الإثـــارة أو المشاكسة، والفوز في النهاية، مهما كان الثمن. وهو لا يسعى لأي نـــزاع أو منافـــسة أو خـــصومة، وهو في مسيرة الحياة، ليس من أولئك الذين

يبحـــثون عن فوز أو يتجنبون خسارة، فليس هناك صراع من أجل الأسبقية أو السيطرة أو الهيمنة .

و" الحلم " يكون موقفه في منطقة متاخمة " للتسامح " و" حق الاختلاف " و" احترام أفكار الآخرين وطريقة حياتهم " .

إن فكـــرة " الحلم " تتسق مع " قدر الأرض ومصيرها " في الوقت الراهن، فالأسلحة المكدسة في ترسانات الدول الكبيرة تكفي لتدمير الأرض مرات كثيرة. وكون ذلك ممكناً لا يعني بالضرورة أن يحدث إذا حل " الحلم " محل " الاستبداد والتعالي "، ذلك أن انهيار العالم بتاريخه وتراثه ومنجزاته مقترن بدرجة كبيرة بالرغبة في القوة والسيطرة، وغياب " الحلم " .

آلية الحوار الحضاري :

أولاً: لن يتم الحوار إلا بين تكوينات متفق عليها سلفاً، يمكن أن تكون على النحو التالي :

١ – الحضارات، وهي دائرة متسعة، ينطوي تحتها تشكيلات ثقافية وعرقية، ويمكـــن أن تكـــون ذات طابـــع إيديولوجـــي يخلـــق شبكة نوعية من القيم والمعـــتقدات ورؤى العـــالم كـــأن نقول الحضارة الإسلامية أو الغربية أو الكونفوشيسية .. إلخ .

٢ – المـــنطقة الجيو–ثقافية، وهي تضم مجموعة من الدول التي تتواجد في مكـــان جغرافـــي متميز ويتكون لديهم بعض أدوات التوحيد الثقافي كاللغة والـــتاريخ والثقافة والدين مثل: الدول العربية والاتحاد الأوروبي أو الدول المتوسطية .. إلخ .

٣ – على مستوى الدول، والتي تمثل وحدة التحاور الأولى .

ثانياً: فلسفة الحوار الحضاري :

١ – الظواهـــر الإنـــسانية ذات طبيعة معقدة، ومن ثم فإن فهمها يحتاج إلى رؤيـــة منظومـــية مـــتعمقة تأخـــذ في اعتبارها مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية .. إلخ .

٢ – أن الـتفاعل بين هذه الظواهر قد ينطوي على مجموعة من المشكلات والصعوبات التي تستدعي سعة الصدر والتفهم (آلية قصور داخل المنظومة نفسها) .

٣ – عـدم الأخـذ بالقوالب الجامدة التي تثير بعض المشكلات التقليدية بين المتحاورين .

٤ – الاعتراف المتبادل بخصوصية الحضارات وتميزها .

٥ – قـبول التفاعل بين الهويات الثقافية المتعددة، والتي تسمح بالتعايش بين مختلف التقاليد الحضارية .

٦ – الاعتراف بأن الحوار يمثل أحد متطلبات البقاء والتوازن الكوني، الذي يمكن للصراع أن يعصف به .

٧ – النقد الذاتي واستيعاب نقد الآخرين .

٨ – القبول المتبادل لضبط العنف في حسم الصراعات .

٩ – إقصاء أساليب الهيمنة والسيطرة .

١٠ – بحث واسترجاع نقاط الاتفاق، حتى يمكن الانطلاق من خلفية مشتركة .

١١ – التسليم بوجود جوانب خلافية، وأن هذا ليس بالظاهرة المرضية .

١٢ – المعرفة الحقة والتحليل الموضوعي .

ثالثاً: شروط الحوار الحضاري :

١ – أن تـسود الـندية بـين المتحاورين، فلا يتحاور الأطراف من منطلق التعالي والسيطرة والهيمنة والتميز .

٢ – أن يصاحب الحوار أنشطة تعارف حضاري متعمقة .

٣ – أن يعفى من الاشتراك في الحوار كل من يتعصب لرأي أو فكرة .

٤ – أن يأخـذ كـل مشترك في الحوار نصيبه كاملاً في عرض رأيه دون مقاطعة أو تشويش أو استخفاف أو استنكار .

٥ – أن يبدأ الحوار بجوانب يمكن الاتفاق عليها، وأن تؤجل القضايا الحساسة المعقدة .

٦ – أن يكـون الحوار مستمراً وممتداً من خلال زيارات متبادلة، ولا يكتفي بالحوارات المؤتمرية .

٧ – أن تمـــارس وسائل الإعلام دوراً في دعم الحوار وإثرائه وإكسابه دعماً شعبياً.

٨ – الاتفاق على قضايا الحوار والتركيز عليها دون تشتيت .

٩ – استمرار الحوار حتى بعد تحقيق غاياته .

١٠ – إيجـــاد بنـــية مؤســـسية تـــشرف على استمرارية الحوار والنهوض به ومواجهة أي صعوبات تعترضه .

١١ – الاعتراف المتبادل بأن كل طرف يمتلك فكراً أو عقيدة أو حضارة يجب احترامها .

١٢ – أن يملك المتحاور صدراً رحباً وأفقاً واعياً .

١٣ – أن يتـــزامن مـــع الحـــوار الرغبة الصادقة للتعاون المشترك البناء بين المـــتحاورين فـــي مخـــتلف المجالات: السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، العلمية ..

رابعاً: مقومات الحوار الحضاري :

١ – الاتفاق على موضوع الحوار والمحاور المرتبطة به .

٢ – توافر عنصر المعرفة بجوانب الموضوع .

٣ – التحليل الموضوعي بحيادية ونزاهة .

٤ – استخدام الحقائق والأرقام بدون تعليقات تنطوي على استخفاف أو تحقير أو تهوين أو تهويل .

٥ – افتراض حسن النوايا .

٦ – إبـــداع أفكـــار جديـــدة مـــن شـــأنها أن تثري الحوار وتعمق التواصل الحضاري والإنساني .

٧ – أن يكون مجال الحوار هو الرغبة في تحقيق الأخوة الإنسانية .

٨ – ألا تكون غاية الحوار الحرب أو المنازلة أو السيطرة أو الهيمنة، وإنما غايته التواصل والتفاعل والتآلف .

مراجع الفصل الخامس

١ - نصر محمد عارف (١٩٩٤)، الحضارة - الثقافة - المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٢٢ .

٢ - المرجع السابق، ص ٢٤ .

3 - Hava Lazarus – Jafelh, (1981), Judaism and Islam: Some Aspects of Mutual Cultural Influences, London, pp. 72-89.

٤ - رضوان السيد (١٩٩٥)، العلاقات الإسلامية المسيحية .. ثقافة الجدل وثقافة الحياة، مجلة الاجتهاد، العدد السابع والعشرون، دار الاجتهاد، بيروت، ص ٥-١٤ .

٥ - ألبيكس جورافسكي (١٩٩٦) مؤلف، خلف محمد الجراد (مترجم)، الإسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص ٦٨ .

٦ - المرجع السابق، ص ص ١٢٧-١٣٠.

7 - Gibb, H. R. (1955), The Influence of Islamic Culture on Modieval Europe, John Rylands Library Bulletin, Vol. 38, pp. 82-98.

٨ - اللجنة العالمية للثقافة والتنمية (١٩٩٧)، ترجمة بإشراف جابر عصفور، التنوع البشري الخلاق: تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص ٥٥ .

٩ - حسن حنفي (١٩٩٧)، الثقافات صراع أم حوار ؟ المؤتمر الدولي حول صراع الحضارات أم حوار الثقافات، منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والأسيوية، القاهرة، ١٠-١٢ مارس ١٩٩٧، ص ص ٥٤-٥٩.

١٠ - المرجع السابق .

١١ - عبد الوهاب المسيري (١٩٩٨)، فقه التحيز: المقدمة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، فيرجينيا، ص ص ٣٣-٣٤ .

١٢ - عبد الوهاب المسيري (٢٠٠١)، العالم من منظور غربي، دار الهلال، القاهرة، ص ص ٢٨٤-٢٨٧ .
١٣ - عبد الوهاب المسيري (١٩٩٨)، مرجع سابق، ص ٩٠ .
١٤ - فاكلاف هافيل (١٩٩٥)، تحليل الكراهية، مجلة ديوجين، منظمة اليونسكو، ص ص ١٧-٢٠ .
١٥ - نقلا عن: إنطوان جارابون (١٩٩٥)، القانون واللغة الجديدة للتسامح، مجلة ديوجين، اليونسكو، ص ص ٥٩-٧٠ .
١٦ - بول ريكور (١٩٩٥)، تضاؤل التسامح ومقاومة ما لا يحتمل، مجلة ديوجين، منظمة، اليونسكو، ص ص ١٣٣-١٣٩ .
١٧ - طه جابر العلواني (١٩٩١)، أدب الاختلاف في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، فيرجينيا، ص ١١ .
١٨ - نور بيرتو بوبيو (١٩٩٥)، في مدح الحلم، مجلة ديوجين، اليونسكو، ص ٩ .

obeikandl.com